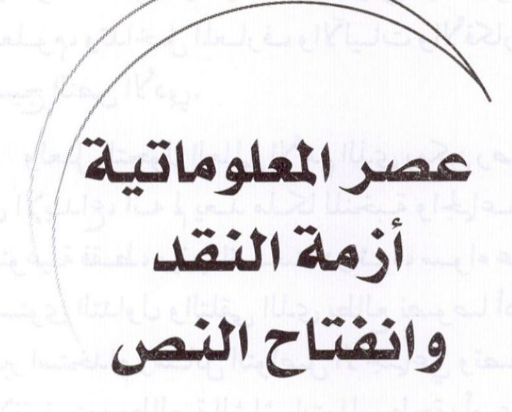






عصر المعلوماتية أزمة النقد وانفتاح النص

د. محمود الضبع

وكيل كلية الآداب - جامعة قناة السويس

يبدو أن مفهوم العلم يعاد صياغته من جديد فى زماننا، بعد قرون من الإغراق فى التخصص الذى أحدث القطيعة المعرفية وأنتج "كليتين ثقافيتين" تبتعد كل منهما عن الأخرى أكثر مما تقترب هما "الثقافة الإنسانية وعلومها" و«الثقافة العلمية وعلومها»، والذى بلغ بهما الأمر أن تنفى كل منهما مفهوم العلم والعلمية عن الأخرى، فأصحاب التخصصات العلمية يرون أن الإنسانيات لا جدوى كبيرة منها، ويرى أصحاب التخصصات الإنسانية أن العلم استطاع الكشف عن كثير من قوانين الحياة وأنتج اختراعات لا تنكر، لكنه فى الآن ذاته جعل الإنسانية تنحرف عن مسارها وتنشغل عن أهم ما كان يجب أن تنشغل به وهو الإنسان الذى ما يزال السر المغلق، إلى الدرجة التي تجعل الإنسان ذاته يجد صعوبة فى فهم نفسه غالبا.

ويبدو أننا سنشهد تراجعا فى المستقبل القريب عن هذا الصراع بين الكليتين الثقافيتين، وأنه ستتم العودة للمزج بين العلوم الإنسانية والعلمية ربما بمفهوم الموسوعية الذى كان متحققا فى التراث العربي، والذى يمكن استكشافه فى كثير من كتب الأمهات العربية مثل: "الحيوان" للجاحظ، و«نهاية الأرب فى فنون الأدب" للنويري، و«رسائل ابن عربي»، ومؤلفات ابن سينا والفارابي وابن رشد، وغيرهم ممن قاربوا بين العلوم والفنون بما لا يمكن الوقوف بهم عند تخصص بعينه.

ولعل التوجه العالمي نحو الدراسات البينية يعد خطوة فى سبيل هذه الموسوعية أو إزالة الحدود القطعية بين العلوم والمعارف، وإن كان ليس بالمفهوم التقليدي لموسوعية تراثنا العربي كما خبرنا، ولكن بما يتناسب مع معطيات العصر وتطور العقل

الجمعي الإنساني وتطور أدوات المعرفة واعتمادها التكنولوجيا والمعلوماتية على النحو الحادث من حولنا، وهو ما يمكن رصد تأثيره على الإبداع والفنون والآداب.

التحولات العالمية فى مفاهيم الإبداع والفكر والفلسفة:

طرأت على عالم المعرفة (إجمالا) تحولات ثقافية كثيرة، كان لها تأثيرات عدة على الثقافة العربية [1]، وكان لها امتداد إلى مفاهيم الإبداع والفكر والفلسفة (بمعنى الوعي الفلسفى الذى يحكم أفق المبدع)، ويمكن التدليل على ذلك بقراءة وتحليل جماليات النص المعاصر (شعر، قصة، رواية، مسرح)، وتأثرها بآليات التداول المعاصرة، ومنظومات القيم المستحدثة (ومنها قيم السوق، واستخدام التكنولوجيا) بالتناص معها فى محتوى الإبداع، أو تداخلها عبر آليات الإنتاج (استخدام القطع المتوازي مثلا فى بناء النص السردى بوصفها تقنية مستمدة من السينما، أو استخدام آليات العرض والإنتاج التكنولوجي فى إنتاج النص السردي عبر الميديا)، وكذلك تأثرها بفلسفة العصر التي أقرتها المعلوماتية (السرعة، الخفة، الاختزال، الانتقال) مما أثر على مضامين الإبداع وأسس بنائه.

توارت موضوعات كثيرة كانت تحتل مساحة من الإبداع الشعري والسردي (الحرمان والحب، والقهر على الزواج، وديكتاتورية الأب... إلخ)، وأعيد تكييف موضوعات (التاريخ، والأسطورة.. إلخ)، واستحدثت موضوعات (التكنولوجيا بوصفها موضوعا، والزومبي، والأفاتار... إلخ)، وبالتالي تأثرت أساليب وطرق الكتابة فى الأنواع الأدبية، على مستوى طرق البناء، وأساليب استخدام اللغة، ومفاهيم الجمال بين الفلسفة والأدب، ومتطلبات النوع الأدبي وعناصره، ومخالفة أو مجادلة أو الاشتباك مع الوعي العام ووعي التلقي، وغيرها من تحولات يطول رصدها.

واتسعت فكرة استعارة التقنيات، ليس هنا بين الأنواع الأدبية وحسب، وإنما من فنون وعلوم أخرى بعيدة تماما عن الأدب، مثل: نظريات الفيزياء فى تحولها لسرد، وتقنيات الموسيقى، ومنجزات العلوم، وتداخل المعارف والآليات والأفكار فى نسيج النص الأدبي.

ولعل التحول العالمي الأهم الذى يمكن رصده فى الإبداع، أنه لم يعد ملكا للنخبة والجماعات النوعية فقط، وإنما اتسعت دوائره، سواء على مستوى التداول والتلقي الذى يطالع نصوصا أدبية عبر استخدام وسائل التواصل الاجتماعي وتصفح الإنترنت ومطالعة الشاشات المسطحة، أو على مستوى اتساع رقعة مبدعي وكتاب الأدب، وهو الأمر الذى ساعد عليه وجود المنتديات الأدبية، والمدونات الخاصة، ومواقع التواصل الاجتماعي، وسيولة النشر التي أتاحتها التكنولوجيا، مما شجع الكثيرين على الكتابة وإقامة المسابقات والتفاعل عبر المساهمات، إلى الدرجة التي دفعت البعض لتكوين دور نشر إلكترونية عبر الإنترنت، لا تهدف للربحية أو البيع، وإنما تهدف إلى نشر الأعمال الإبداعية للراغبين بعد تحكيمها من قبل الأعضاء المؤسسين، وإتاحتها للتداول.

ومع هذه التحولات إجمالا، لم يعد فعل الكتابة خالصا لمعايير ومقاييس الأدبية والنقد الأدبي بالكيفية المتعارف عليها، وإنما تغيرت طبيعة الكتابة، وظهرت أجيال متعددة قريبة العهد تمثل

أذواقا متعددة، وتعتمد التجريب واليقين الفردي بديلا عن الانتماء إلى جماعة أو اتجاه أو جيل أو مؤسسة، وبالتالي انفتح باب التجريب فى الإبداع على مصراعيه، ولم تعد له حدود أو آفاق يمكنه التوقف عندها.

وفى سياق ذلك لم يستطع النقد رصد أو تحليل هذه التحولات والوقوف عليها نظرا للصعوبات التي يعاني منها فى العقود الأخيرة.

أزمة النقد وانفتاح النص:

يعاني النقد العربي عددا من الأزمات، بعضها يعود لعوامل داخلية تسبب هو فيها، وبعضها يعود لعوامل خارجية نتيجة ما طرأ على العالم من تغيرات بفعل التطور الطبيعي لمسار الحضارات.

وتعود العوامل الداخلية إلى: المنهج، والمصطلح، والنقد الصحفى، والنقد المجامل، والتخصص المحترف، فى حين تعود العوامل الخارجية إلى: مجتمع المعرفة وأدواته، والمعلوماتية وحالة السيولة، والميديا واختلاف الوسيط، وانفتاح النص وانغلاق النقد.

ـ أولاـ العوامل الداخلية:

أزمة المنهج، حيث اعتمد النقد العربي على المناهج الغربية الواردة فى تحليل النص، وتوارت شيئا فشيئا مصطلحات الأدب والبلاغة والنقد العربية، ولم يعد يتم استخدامها الآن إلا فى أضيق الحدود ومن قبل فئة غير كثيرة من المتخصصين... وبغياب المصطلح يغيب المفهوم بالضرورة، وتغيب الحمولة الثقافية الكامنة وراءه، أما كيف حدث ذلك، ومن المسؤول؟، فيمكن تأمل وتحليل منجز النقد العربي منذ النصف الثاني من القرن العشرين وحتى لحظتنا الراهنة، وسيتبدى لنا واضحا أن المنهج الغربي غرر بالنقد العربي وأوقعه فى التغريب، فانفصل عن النص وعن الواقع، ناهيك بالطبع عن تبعية هذه المناهج لفلسفات ونظريات اقتصادية وسياسية واجتماعية كانت تمثل توجهات فى مجتمعاتها، وكانت ترجمتها للعربية تتأخر -من الأساس- لسنوات طويلة تتجاوز الخمسين أحيانا مما يعني أن الوعي بها فى بلادها قد تجاوز الحدود.

أزمة المصطلح، حيث يعاني المصطلح العربي فى كل العلوم فضفضة ومجانية وعدم اتفاق (الضبط المنهجي)، وكذا فى الأدب والنقد، فلا المصطلح العربي القديم يتم استخدامه الآن بضبطه الذى كان عليه قديما، ولا المصطلحات الغربية الواردة تم الاتفاق على ترجمة محددة ودقيقة لها، وتكفى الإشارة إلى تعدد مصطلحات: الشعر الحر، والشعر التفعيلي، والشعر الجديد، والشعر المنثور.... إلخ للدلالة على نوع واحد من الشعر، وهو الأمر المتكرر فى معظم مصطلحاتنا الأدبية، ناهيا بالطبع عن تعدد أفهامنا حول (semantic, stylistic, structure) وغيرها من مصطلحات غائمة الدلالة فى نقدنا قياسا إلى بيئاتها.

النقد الصحفى، وهي قضية قديمة أثارها طه حسين فى مقالاته "لغو الصيف وجد الشتاء" عام ١٩٣٣م، حيث أشار حينها لرواج النقد الصحفى الذى هو أقرب للترويج الإعلامي منه للقراءة النقدية، وعلى مدى ما يقرب من قرن من الزمان تزايدت هيمنة هذا النوع من النقد، وساعدته عوامل عدة على الانتشار، منها قرب لغته من لغة القارئ



العام، وسرعة انتشاره، وربما أهمها هيمنة الميديا بفروعها (الصحافة، والإنترنت، واليوتيوب.. إلخ) على آليات الثقافة عموما، غير أن الاستسهال وعدم امتلاك الحد الأدنى من أدوات النقد، خلط بين القراءة النقدية والخبر الصحفى، مما زاد من أزمة النقد العربي.

النقد المجامل، وهو كثير فى الثقافة العربية والواقع العربي، ارتبط بالصحافة والإعلام والندوات الاحتفالية وحفلات التوقيع والمؤتمرات، وله علاقة قوية بالجوائز التي غدت معيارا للقراءة ولفت الانتباه، وهو ما جعل التلقي يعرض عن النقد المتعمق غير الشفاهي وغير التداولي (السماعي)، ويبدو أن غياب المعيار النقدي -من الأساس- كان له التأثير الأكبر فى سريان هذا النوع من النقد.

التخصص المحترف، حيث وقع كثيرون فى فخ تطبيق نموذج المنهج بحذافيره على النص الأدبي، مما استدعاهم إلى عنق النص قسرا فى بعض الأحايين، فليست كل النصوص قابلة ـ مثلا ـ لأن يتم تحليلها بالمدخل البنيوي أو النفسي أو الأسلوبي، أو التفكيكي، أو بنموذج جينيت، أو فلاديمير بروب، أو غيرهم، وهو ما أساء إلى المنهج ومستخدميه المحترفين، وأساء إلى الدراسات الواعية التي حاولت تصحيح المسار.

ـ ثانيا ـ العوامل الخارجية:

مجتمع المعرفة وأدواته، والذى جعل المعرفة من أهم مكونات رأس المال فى الاقتصاد المعاصر، وحلت السلعة والمنتج محل القيمة والمضمون، مما جعل الأدب خاضعا لمفهوم الإنتاج والتداول، وليس قيمة فى ذاته، وبالتالي تحول النقد نوعا من أنواع المعرفة الواعية بمعطيات النص وإحالاته المرجعية إلى علوم الاقتصاد والسياسة والفلسفات الكبرى التي تعيشها المجتمعات التي أنتج فيها النص، وهنا وقع النقد العربي فى مأزق التغريب، فلا هو ظل محافظا على المعنى والقيمة بالمفهوم العربي، ولا استطاع أن يقارب بين مفاهيم النقد الغربي المواكبة لبيئاتها الثقافية وبين النص العربي، الذى لم تتجاوز بيئاته الحداثة بعد (فى حين تجاوز المجتمع الغربي ما بعد بعد الحداثة).

المعلوماتية وحالة السيولة، فقد أوجدت المعلوماتية أشكالا جديدة من الأدب، منها النص التشعبي، والنص الرقمي، والرواية الرقمية، والسيناريو غير المعتمد على نص أدبي، والأنيميشن، والأفلام القصيرة... إلخ، واكتسب الأدب جماليات جديدة ومجازات جديدة أوجدتها مصطلحات المعلوماتية، ومن جانب آخر حدثت سيولة فى الإنتاج والتداول والانتقال، كما تنبأ بها إيتالو كالفينو[٢]، ونظرا لكون الوعي العربي مستهلكا لا منتجا فى هذا السياق، فقد وضع النص الأدبي العربي فى سياق المقارنة العالمية، وتغيرت معايير تلقي هذا النص، وتدخلت فيها عناصر الصورة والصوت والموسيقى والملتيميديا، وبالتالي تغيرت آليات قراءة ونقد النصوص الأدبية، وتشكل وعيان: أحدهما يرفض الاعتراف بهذه المعلوماتية ويتعامل مع النصوص بالوعي النقدي السائد الممتد من منتصف القرن الماضي(ويكاد ينعدم متلقوه)، وثانيهما يحاول استيعاب عالم المعلوماتية وإنتاجيته، ويحاول قراءة النصوص بها (وهو اتجاه لم يتأسس على نحو واضح فى الوعي العربي)، وكلاهما يعاني من أزمة فى النقد.

الميديا واختلاف الوسيط، فلم يعد النص الأدبي وسيطه فقط عبر الكتاب المطبوع، وإنما أضيفت

إليه وسائط أخرى كثيرة وبخاصة ما يتعلق منها بالملتيميديا (الصوت والصورة والحركة واللون... إلخ)، والنص الرقمي، وغيرها مما أوجدته التكنولوجيا والشاشات المسطحة، وبالتالي نشأت أجيال من الكتاب الذين لم يعد يعنيهم نشر النص الأدبي عبر الكتاب المطبوع ورقيا، وإن طبع فلا يتم الاكتفاء به وسيطا، وإنما غدت الوسائط التي وفرتها التكنولوجيا هي البديل الأوفر والأسرع فى التداول، وخلقت هذه الوسائط نقدها ولغته بعيدة عن عالم النقد العربي، الذى انحصر فى المؤسسات التعليمية والجامعية (النقد الأكاديمي بصيغه الكلاسيكية).

انفتاح النص وانغلاق النقد، تضافرت العوامل السابقة جميعا فى إثراء النص الأدبي (على مستوى المضمون والمحتوى والإشارات والدوال، وعلى مستوى آليات التداول)، وهو ما أدى إلى انفتاح النص على حقول معرفية قريبة الصلة بالأدب وأخرى بعيدة تماما (الفنون، وعلوم الفضاء، والفيزياء، والكيمياء.. إلخ)، وتحرر الأدب كثيرا من قيود المحرمات الثلاث (الدين والجنس والسياسة)، وانفتحت آفاق التجريب على مصراعيها (غدا كل أديب يرى فى نفسه مؤسسة فردية بعد أن تحرر من الالتزام بمدرسة أو جماعة)، فى حين انغلق النقد العربي على مدارسه ومناهجه وأدواته وطرق تداوله التقليدية والمتداولة والملتزمة بحرفية الخطوات التي تمت ترجمتها من الغرب سواء أكانت الترجمة صحيحة أم فيها خطأ فى المفهوم، مما أوقعه فى أزمة الانفصال والمحدودية التي يعاني منها الآن.

مداخل قراءة النص العربي:

حدثت تحولات نوعية غير مرئية فى الوعي العربي، وفى العقلية العربية على مستويات عدة، نتيجة اعتماد الخطاب الثقافى الغربي فى كل المجالات: الفكر والسياسة والفن والمناهج العلمية، وهذه هي التي تتم بها قراءة المشهد المحيط اجتماعيا وحضاريا، ومن ذلك مناهج النقد الأدبي، تلك التي تقدم قراءتها عن نصوص عبرت عن الواقع الاجتماعي، وترصد لحركات المجتمع وتحولاته، ناهيك عن مكونات هويته وجماليات التلقي التي يحيا بها، غير أن التطبيق الحرفى للوارد يسقط هوية النص، ولا يراعي اختلاف بيئة الكاتب العربي عن الغربي عن الأسيوي عن الإفريقي (مثل نجيب محفوظ، الذى تعد أعماله تشريحا للواقع المصري، والحارة المصرية، وحاملة لهوية وملامح المجتمع المصري إجمالا).

تحولت العقلية النقدية العربية إلى قراءة النص العربي بعقلية غربية (منهج نقدي غربي، نظرية فى الفن، أو الاجتماع، أو السياسة، أو الفكر عموما)، وشيئا فشيئا انزوت مفاهيم تراثنا النقدية، مما جعل البعض من كبار نقاد العربية لا يجد مخرجا سوى تبرير ذلك بأن"النظريات العلمية هي نتاج بشري وملك للتطور، وليس للعلم هوية، وإنما العلم تراكم، واستخدام نظرية أو منهج فكري غربي هو تواصل واتصال ومواكبة للتحضر، وليس بالضرورة بحثنا عن منهج عربي أو ملامح هوية عربية"(٣).

قد تمثل هذه الرؤية مدخلا للتفكير فى واقعنا النقدي العربي، غير أنها ليست وجهة النظر الوحيدة التي يمكن الاعتماد عليها، وإنما هناك وجهة نظر مضادة تنطلق من التفكير بمنطق إعادة بناء تراثنا واختزاله واختصاره أولا، ثم فتح الأفق على الأطروحات الجديدة للباحثين العرب ممن استطاعوا استيعاب المشهد بالكيفية التي تم طرحها

سابقا، وربما تتمكن هذه الأطروحات الجديدة أن تستثمر مدخل القراءة الثقافية للأدب السائد الآن، والذى سيسمح لنا بدمج تراثنا فى وعينا النقدي بما تسمح به آليات النص وإمكانات قراءته.

وإن كانت وجهة النظر الأخيرة فى حاجة إلى جهد أكبر، وعمليات قد تبدو من الخارج معقدة، غير أنها فى الحقيقة ستعيد رسم أدوار جديدة للنقد، فى تجاوزه مجرد تحليل النص الأدبي إلى تحليل التراث وإعادة بنائه فى سياق القراءة الثقافية التي يقوم بها، والتي قد تحيل نصوصها إلى هذا التراث، وقد لا نكون حالمين إذا افترضنا أنها ستعمل على تكوين عقلية ناقدة مبدعة وليست عقلية تعتمد تطبيق طريقة محددة سلفا أو منهج أو أداة متداولين، مثلما يحدث من تطبيق لإستراتيجية جينيت فى قراءة النصوص، وما تفترضه مبدئيا من انتفاء حكم القيمة.

القراءة الثقافية وعى بالنص:

بالفعل فإن القراءة الثقافية لديها الحساسية الأعلى بالنص الأدبي العربي، لأنها اختبار للنص فى ظل إنتاج أفق ثقافية متنوعة، وهي فى الآن ذاته قراءة للمشهد الثقافى وليس فقط للنص، وفى أطر متنوعة وليس فى سياق واحد، مع إحداث الترابط بين هذه الأطر لإنتاج ثقافى جديد.

وعليه فإن النقد الثقافى لا يجب أن يكون قراءة متوازية، وإنما قراءات متقاطعة، ونقطة تقاطعها هي النص ذاته، فهو المنطلق بوصفه المحتوي للروافد الثقافية، وهو المنتهى بوصفه قمة الإنتاج الثقافى.

إن النص الأدبي فى نهاية الأمر هو مقولات تلتقي على نحو أو على آخر بمقولات النظريات والفلسفات ومجمل النتاج الفكري الإنساني السابق الذى تم اختزاله فى عقل المبدع منتج النص، وهذا الاختزال تمت إعادة إنتاجه عبر دوال اشتملها النص، وفى الآن ذاته لابد من قراءته فى سياق التحولات العالمية التي أثرت على بيئة التلقي، وتأثيره هو فيها، وهنا من المهم أن تكون دراسة النصوص الأدبية منطلقة من هذا الوعي بهدف الوقوف على تقاطعات الثقافة بين النص وبين فنون العرض مثلا، أو بينها وبين نظريات الفيزياء الحديثة (فيزياء الكم)، أو بينها وبين منجزات التكنولوجيا، والعلوم البينية، وعلوم الاقتصاد والسياسة وغيرها من التأثيرات العالمية فى مجال المعرفة وتطورها، وهو ما سيؤدي فى نهاية الأمر إلى فهم تأثيرات النص على التلقي وقدرته على إعادة الإنتاج ثقافيا وجماليا.

فكما كان يقال قديما الرجل هو الأسلوب، فإنه يمكن اليوم توسيع مفهوم الأسلوب ليتجاوز حدود الأسلوب اللغوي فى دراسة كيفية استخدام اللغة، إلى دراسة ما سبق والإضافة إليه بدراسة أسلوب الخطاب الثقافى إجمالا، وتأثير هذا الخطاب على المبدع، وعلى النص (أبنيته ودواله الثقافية)، وعلى التلقي (تأثير خطاب النص على المتلقي).

وفى هذا السياق يأتي السؤال أولا حول تأثر المبدع بالخطاب الثقافى السابق عليه، والذى تشكلت خبراته فى إطار اختبار مفاهيمه وعناصره:

فما الذى يتبقى من النظرية أو الفلسفة أو التيار بعد أن ينزوي تيارها أو يتراجع للوراء مفسحا المجال لتيار جديد ؟

فى حقيقة الأمر فإن ما يتبقى هو المقولات بعد أن يتم تفكيك النظرية، أي إن النظرية يتم اختزالها إلى

جملة من المقولات، وهذه المقولات هي التي تتقاطع عبر النص الأدبي ليس بمقولتها تحديدا، وإنما بما تعبر عنه وما تحيل إليه.

الشكلانية الروسية، مثلا، ماذا يتبقى منها غير النظام العلمي للأدب (نظرية الأدب)؟

والبنيوية، ماذا يتبقى منها غير مقولات الدال والمدلول، وثنائية اللغة والمعنى؟.

والأسلوبية، ماذا يتبقى منها غير العلاقة بين المعنى ومعنى المعنى؟

وغيرها من مناهج ومداخل النقد الأدبي، والنظريات الفلسفية، والاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية...، تلك التي تفككت جميعا ولم يتبق منها سوى مفاهيم ومقولات يتم الاتكاء عليها فى القراءة النقدية.

ربما يكون ذلك أدعى لأن نفكر من هذا المنظور فى واقعنا النقدي، ونلجأ للقراءة الثقافية لتعيدنا إلى نقد عربي لا يبتعد عن التطور العالمي، ولا يغفل الهوية العربية وأبعادها ووجوهها، ذلك أن هويتنا ليست نمطا واحدا، وإنما هي أنماط متعددة، وهويات فرعية تتشابه على نحو ما، وتتفرد فى أنحاء كثيرة، وهذا التفرد هو ما توليه المعلوماتية الاهتمام، باعتباره هوية نوعية لا يمكن إغفالها.

القراءة الثقافية والمثاقفة:

النص الأدبي هو نتاج تلاقح ثقافى، بين منتجه والروافد الثقافية التي أسهمت فى هذا النتاج، إذ لا يمكن وجود نص فى الفراغ دون أن تكون له خلفيات مرجعية يؤول بعضها إلى المنتج الثقافى الذى تمكنت البشرية من إنجازه عبر تاريخها والمختزن فى عقل الكاتب حتى زمنه (التراكم المعرفى والتراثي القديم والحديث)، ويؤول بعضها إلى وعي منتج النص وتأثير هذه الروافد فيه تبعا لطبيعة الموضوع الأدبي وغاياته، سواء أكانت هذه الغايات مرتبطة بتوجه ينتمي إلى مدرسة أو جماعة، أم إلى اليقين الفردي ووعيه، ويؤول بعضها إلى النتاج السابق للمبدع، وهو ما يتضمن فى نهاية الأمر إحالات مرجعية يمكن بشكل أو بآخر تتبعها للكشف عن الروافد الثقافية لمبدع النص وآليات تفكيره، وقناعاته، وروافده المعرفية، ووعيه بالمفاهيم التي يقدمها النص أو يجادلها، وتأثيره فيها وتأثره بها.

وعلى مستوى التلقي، فإن النص الأدبي - أيضا - هو نتاج علاقة تلاقح بين النص وبيئات التلقي التي يتم استقبال النص فيها، إذ إن تفسير دوال النص وإمكانات التواصل معه ستظل مرهونة بالروافد الثقافية لبيئة التلقي والوعي الناتج عن التأثر بها، أي ثقافة مجتمع التلقي، والخطابات الثقافية السائدة فى عصره.

من هنا يمكن رصد المثاقفة فى الأدب، بوصفها التأثيرات المتبادلة:

أ- التي يحدثها الآخر، ويتفاعل معها المبدع سواء باستلهام الأفكار على نحو جزئي فى النص، أو بالتقاطع معها معرفيا، أو باقتباس مقولتها، أو أحداثها على نحو ما أسس له التناص.

ب- والتأثيرات التي يحدثها المبدع فى بيئة التلقي عن طريق النص.

وتختلف المثاقفة عن التناص فى أن التناص يرصد حضور الآخر فى الأنا ورصد جمالياته، فى حين توسع المثاقفة المفهوم لتتضمن آليات التناص،

وتجاورها بما هو غيرها من أدب مقارن، ونقد ثقافى، ونقد حضاري بما أسسه هؤلاء من رصد لجماليات التلاقح الثقافى فيما نسميه "المثاقفة".

وتختلف المثاقفة عن النقد الأدبي، فى كون الأخير يتبنى منهجا أو مدخلا له خطوات وإجراءات وأدوات، وسواء تم تطبيقها حرفيا، أم كانت الدراسة النقدية انتقائية فى استخدامها لأدوات المنهج، فإنها فى النهاية تلتزم بحدود إطار معرفى واحد (هو ما تحدده النظرية النقدية مثل التاريخانية، أو البنيوية الاجتماعية، أو المنهج النفسي.... إلخ)، فى حين توسع المثاقفة من قراءتها لتشمل النقد الأدبي وتضيف إليه التواصل مع حقول معرفية تضمنها النص أو حمل دوال تحيل إليها (فيزياء، موسيقى، نظريات فى السياسة والفن والاجتماع، علوم بينية... إلخ).

وتختلف المثاقفة عن الأدب المقارن فى كون الأدب المقارن باتجاهيه - الفرنسي والأمريكي - يشترط وجود نصين مختلفين أحدهما قديم والآخر معاصر، وتشترط - كذلك - حد اختلاف اللغة بين النصين، والتشابه الموضوعي بينهما، فى حين يوسع مفهوم المثاقفة من حدود الأدب المقارن، ويسمح بالبحث فى نصين متجاورين متعاصرين متزامنين متفقي اللغة أو مختلفتين، متشابهين فى الموضوع أم غير متشابهين، لأن البنية الثقافية وتقاطعاتها هنا هي الحاكمة، وليست طبيعة أو بنية الموضوع الأدبي.

فمثلا يمكن دراسة نصين روائيين أحدهما عالج موضوع الجريمة، والثاني كان عن الخيال العلمي، وكلاهما استخدم سفينة فضاء مكانا للأحداث، فسفينة الفضاء هنا ستستحضر بالضرورة معرفة عن الفضاء ومفاهيم الجاذبية (ثقافة الفضاء وأدواته) وبالتالي فإن دراسة آليات بناء النص الروائي وأحداثه متشابهة لأنها تحتكم لبنية معرفية واحدة، وإن كان الموضوع الروائي سيختلف، فإذا أعيد إنتاج هاتين الروايتين فى فيلمين سينمائيين، فإن مداخل قراءة العملين سوف تتعدد، لأنها ستدرس أبنية النص وتأثيراتها، وكذلك تأثيرات أبنية الفيلم من إضاءة وموسيقى وحركة كاميرا وترتيب مشاهد، ويمكن التدليل بفيلم" البين نجمي"[٤] Interstiller الذى اعتمد على نظرية علمية ونص سردي تمت كتابته أكثر من مرة، فقراءة ذلك نقديا ستستدعي القراءة الثقافية متعددة المداخل بالضرورة، وهو ما يجعلها تتجاوز مجرد التناص، والأدب المقارن، والنقد الفني، والتحليل باستخدام منهج نقدي، والنقد الأدبي إجمالا.

كذلك يمكن دراسة التقاطعات الثقافية لكاتب واحد عبر أعماله السابقة، أو عبر تقاطعات مع كُتاب آخرين، ليس بمفهوم التناص، وإنما بمفهوم الحضور الثقافى.

بهذا المعنى تصبح المثاقفة هي دراسة التقاطعات الثقافية التي أحال إليها النص من آليات بناء إلى جماليات تلقي إلى دوال ثقافية تحيل إلى السياسي أو الفكري أو الديني أو الاجتماعي أو الفلسفى أو الاقتصادي، أو غيرها مما يشكل البنية المعرفية بمفاهيمها الحاصلة من حولنا.

من الأحادية إلى التعدد:

نظرا لاتساع حجم المعرفة وسرعة تداولها، وسيادة عصر المعلوماتية، وبالتالي اتساع رقعة الخطاب الثقافى وتعدد آلياته، ونظرا لأن المبدع هو نتاج هذا التحول فى مفاهيم وطرق تداول المعرفة،

لـذا كان مـن الطبيعـي أن تحمـل النصـوص الأدبية ملامح هـذه التحـولات، وهنا بالضرورة ستتعدد قـراءات النص، ولا يلغي أحدها أحدا، مما سيثري النـص بمداخـل متعـددة، ووجهات نظـر متعددة، وليـس مدخلا واحدا، فكما صارت الحياة متشـابكة المعارف، كذلك سيكون النص متشابك العلاقات، وبالتالي متعدد القراءات.

لم يعد منهج واحد هو القادر على إعطاء مصداقية للنـص فى القراءة المعـاصرة، وإنما تعدد المداخل ربما سـيكون هو الحـل لأزمة النقد العـربي الحالية، ليس فقـط عـلى النصـوص المنتجـة فى الألفيـة الثالثـة، وإنما عـلى النصـوص المنتجة فى القـرن الماضي، لأن التحـولات العالميـة التي نناقشـها هنا ليسـت وليدة اليـوم فقـط، وإنما بداياتهـا تعود للنصـف الثاني من القـرن المـاضي، وإن كان الانفتاح المعـرفى قد بدأ فى الثمانينيات واستمر فى التوسع والتوغل حتى تجلياته التي نراها الآن، ومن جهة أخرى لأن القراءة النقدية هـي إعادة إنتاج للنص فى سـياق المتـداول المعاصر، فلا ننسى أن كبار الكتاب العالميين تمت قراءتهم بعد عشرات السنين من وفاتهم، ومنهم شكسبير نفسه.

هنـا سـيتحول التحليـل النقـدي مـن التصنيف النوعـي لكونه دراسـة أسـلوبية أو بنيويـة مثلا، إلى كونه قراءة....، وسـوف تتعدد مداخل هذه القراءة عـلى مستوى الدراسـة الواحدة، وربـما يكون ذلك تحريكا للميـاه الراكدة فى واقع الراهـن النقدي على نحو نسـبي، وربما تتطور آلياتنـا النقدية العربية أكثر مـن ذلك، بـما ينتـج هويـة عربيـة لنص عـربي وإن تعددت دوال بنائـه بين التراثية والعالمية، أو تنوعت مداخـل قراءاتـه تبعا لما يمكـن أن تجود بـه القرائح العربيـة الواعيـة التي تمتلـك امتدادا تاريخيـا وقدرة عـلى الإنتـاج، فقط لو أتيحت لها فرصـة التحرر من الـرؤى التقليدية التي فرضت وصايتها أو تحاول أن تفرضها على النقد العربي.

الهوامش

١ ـ يمكن العودة إلى كتابنا: الثقافة والهوية والوعي العربي، بتانة، القاهرة، ٢٠١٦م.

٢ ـ إيتالـو كالفينو: سـت وصايا للألفية القادمـة (محاضرات فى الإبداع)، ترجمة وتقديم: محمد الأسـعد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت، والمجلس الأعلى للثقافة مصر، القاهرة، ٢٠٠٠م.

٣ ـ حدث ذلك فى مناقشات خاصة مع كبار من نقاد العربية الآن ممن لهم انفتاح على النقد الغربي ومتابعة تطوراته.

4 - https://ar.wikipedia.org/wiki "البين نجمى"(فيلم) .

